إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع
المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي
في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 – 1962م

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق لـ 04 و05 جوان 2022

تجارب أهل البصيرة في الدعوة والتعليم
قراءة في سيرة الشيخين: مبروك اعواج الشامسي، وحمد توبه

Experiences of the people of insight in advocacy and education
Reading in the biography of the two sheikhs, Mabrouk Awaj Al Shamsi and Hamad Tawba

أ/ نور الدين صحراوي
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي (الجزائر)
Djassem73@gmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز دور فئة المكفوفين في حقل الدعوة والتعليم بالجزائر خلال القرن العشرين، تلك الفترة التي عمّ فيها ظلام الاستعمار الفرنسي في الجزائر عامة ومنطقة الجنوب الشرقي خاصة، بحكم طابع البداوة وغلبة حياة الترحال على حياة الاستقرار لدى أهل تلك الربوع، ناهيك عن نقص دُور التعليم، وقلة الإمكانات حتى تتمكن هذه الفئة من التعلّم ثم التعليم.

وقع اختيارنا على عَلمين من هذه الفئة هما؛ الشيخ مبروك اعواج الشامسي، وحمد توبه، لتصفح دفاتر حياتهما الحافلة بالتحدي والاجتهاد، فقد عاشا مخضرمين، شهدا مرحلة الاستدمار الفرنسي ومرحلة عودة السيادة وبناء الدولة، فكانت نشأتهما قاسية وعوائق الدهر لا حصر لها، إلاّ أن علوّ الهمة والرغبة في التغيير كانت أقوى وبصيرتهما كانت أنفذ، فاستطاعا تحدي الظلام وكسر القيود، وساهما كغيرهما من أولي الأبصار في تهيئة النشء وتنوير الغافلين وتحرير المقلدين على ضلالة، فحاربا الأمية والجهل والتخلف، وبشّرا بالعلم والهداية ما استطاعا إلى ذلك سبيلا.

الكلمات المفتاحية: أهل البصيرة؛ كفيف؛ مبروك اعواج الشامسي؛ حمد توبه؛ التعليم.

Abstract:
This article aims to highlight the role of the blind category in the field of advocacy and education in Algeria during the twentieth century, that period during which the darkness of French colonialism prevailed in Algeria in general and the southeastern region in particular, due to the nature of Bedouin and the predominance of the nomadic life over the life of stability among the people of

those regions, not to mention the lack of The role of education, and the lack of capabilities so that this category can learn and then teach.
We chose two flags from this category: Sheikh Mabrouk Awaj Al Shamsi and Hamad Tawba, for browsing the notebooks of their lives filled with challenge and diligence, as they lived veterans, witnessed the stage of French colonization and the stage of the return of sovereignty and state building, so their upbringing was harsh and the obstacles of eternity were endless, but their ambition and desire for change were stronger and their insight was more effective. They were able to challenge the darkness and break the chains, and they contributed, like other people of vision, in preparing the young, enlightening the heedless, and liberating the imitators on misguidance.
Keywords: people of insight; blind; Mabrouk Awaj Al- Shamsi! Hamad Tawbah; education.

1. مقدمة

لا يخلو زمان من مكافيف[1] ذوي بصيرة وهمم عالية، تسطعُ نجومهم في سماء دنياهم بما أنجزوه في شتى الميادين وبما أنفقوا من جهودهم في تحدي العوائق، يقودون جموع المُبصرين، يفرضون إرادتهم ويحققون أهدافهم كأقرانهم الآخرين على حد سواء، وقد عبّر ابن الجوزي عن ذلك فقال: "من علامة كمال العقل عُلوّ الهِمّة، والرّاضي بالدُّونِ دَني"[2] فإذا كانت الحياة قاسية على الجميع؛ فإن قساوتها على صاحب العصا البيضاء[3] أشدّ وأقوى إذا استسلم وانكفأ على نفسه.

واسأل الأيام منذ عهد النبوّة إلى وقتنا الحالي، تُنبيك بأسماء لشخصيات وقامات من المكفوفين أضاءت دروب إخوانهم المُبْصرين، ولازلنا نقتبس من آثارهم وأعمالهم في الفقه والفتوى والقضاء والأدب والشعر وحتى العلوم التكنولوجية الحديثة، وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿**أَفَلَم يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُم قُلُوب يَعقِلُونَ بِهَآ أَو ءَاذَان يَسمَعُون بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعمَى الأبصَٰرُ وَلَٰكِن تَعمَى ٱلقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾ (سورة الحج 46)، وقد أشبعها المفسرون شرحا وتفسيرا، نختار هنا تفسير ابن كثير فيقول: " ليس العمى عمى البصر وإنّما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العِبر ولا تدري ما الخبرُ وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسي الشنتريني(ت.517 ه).

1- أورد ابن قتيبة في كتابه (المعارف) فصلا لمن ابتلي في جسده تحت عنوان "أهل العاهات" ذكر منهم المكافيف. (ينظر ص.ص578،587)، ولهذا اقتبست هذه التسمية عنه.

2- جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، **صيد الخاطر**، دار القلم، دمشق، ط.1، 2004، ص. 28

3- خصصت الأمم المتحدة يوم 15 أكتوبر من كل سنة يوما عالميا للمكفوفين وضعيفي النظر، وهي لفتة للاهتمام بهذه الفئة ودمجها في المجتمع.

يامن يُصيخُ إلى داعي الشـقاء وقـد نادى به الناعيان الشيبُ والكِبــرُ
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيمَ تُـرى في رأسك الواعيان السمع والبصرُ
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل لم يهدِهِ الهاديان العينُ والأثـــرُ[4]

وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه "المعارف" في فصل المكافيف، وعدّ منهم: أبا قحافة (والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، وأبا سفيان بن حرب، والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله، وكعب بن مالك الأنصاري، وحسان بن ثابت وعقيل بن أبي طالب[5]، وقال الصفدي: قلَّ أن يوجد أعمى بليدا، ولا يُرى أعمى إلا وهو ذكي، وعدَّ منهم الترمذي الكبير الحافظ، والفقيه منصور المصري الشاعر، والشاطبي المقرِي، وابن سيده اللغوي، ورجَّح أن السبب في ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه، ولا يعود مشعبا بما يراه، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئا نسيه، أغمض عينيه وفكّر، فيقع على ما شرد من حافظته[6].

قَرّ قراري على دراسة هذا الموضوع "تجارب أهل البصيرة[7] في الدعوة والتعليم"، وذلك من خلال تتبع سيرة عَلَمينِ من أعلام هذا الميدان في منطقتنا "وادي سوف" هما الشيخان: مبروك اعواج الشامسي وحمد توبه، وقد عاشا أترابا وكابدا نفس الظروف الزمانية والمكانية والعائلية، تشابهت أيامهما وأحلامهما حتى في كثير من تفاصيلها، وكان توفيق الإله لهما سرُّ نجاحهما، إضافة إلى ما تمتعا به من علوّ الهِمّة وعزة النفس، ففي زمانهما التعليم وطرقه شبه معدومة للمُبصر، فما بالك بالكفيف[8] والضرير[9]،أن يدرس ويتعلم ويسافر وينتسب إلى أكبر معاهد التعليم في ذلك الزمان (الزيتونة)، هو جهاد ونصبٌ لا يقوى عليه إلا ذو بصيرة تعلقت هِمّته بمعالي الأمور ولو جاورتِ الثُريا. صحيح إذا نظرنا إلى واقعنا الحالي فإن سُبل العلم للمكفوفين أصبحت أكثر سهولة ويسرا بفضل اهتمام الحكومات بهذه الفئة وتوفر الإمكانات المادية واللوجستية، ولذا ليس غريبا أن تحقق هذه الفئة تميزها وتتدرّج في شتى فنون العلم والمعرفة، لكن عصر الشيخين كان قاسيا جدا، وتكاليف الحياة

4- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ط. العلمية، تح. محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1419 هـ ص. 385

5- ابن قتيبة الدينوري، **المعارف**، تح. ثروت عكاشة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط. 2، 1992، ج. 1، ص.587

6- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **نكت الهميان في نكت العميان**، تع. مصطفى عبد القادر العطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط. 1، 2007، ص. 6.

7- في منطقة سوف يقال للذي فقد نظره "بِصيرْ" بدلا من كلمة أعمى لأنها ثقيلة على النفس، وفي ذلك سلوى للإنسان من محيطه.

8- الكفيف في اللغة هو من أبصر الدنيا ثم فقد نظره.

9- الضرير من ولد فاقد البصر ولم يبصر الدنيا.

لمثلهما تنوء بحملها الأجسام، حتى انطبق عليهما قول المتنبي: "وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مُرادها الأجسام"[10].

الإشكالية: صبيان كفيفان في صحراء سوف من عائلتين بَدويتين لا مال ولا ثروة ولا وصلا عند صاحب الدولة[11]، بل غرز الفقر والفاقة والمَتربة فيهما أنيابه وشرّدهما في حِلِّهما وترحالهما، فأنّى لهما التعليم؟ وكيف يصل إليهما ريحه؟ ألم يكن حلمهما بالتعليم خيط دخان في كثبان سوف؟ من ألهم الصَّبّيين وأرشدهما إلى مدارج السالكين في العلم والإمامة والتعليم؟ وكيف تحدّيا الظلام وعبرا النفق المظلم إلى برّ العلم والتعليم والدعوة إلى الله وتنوير عشيرتهم ومجتمعهم؟ لقد عاش الصبيان في ظلامين؛ ظلام البصر وظلام الاستعمار الفرنسي الذي أعمى أبصار الأمة ونشر الغُمّة وهلك الأوطان، لقد فكّرا وقدّرا فكيف قدّرا؟

أردت في هذه الورقة تتبع سيرة هذين العَلَمين لإبراز دورهما في المنطقة خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة، كشاهدي عصر خاصة وقد عاشا مخضرمين، شهدا مخاض الاستقلال وولادة الدولة، ففي الأولى وإن كانا شابّين في طور التعلّم والتكوين؛ فقد ساهما كغيرهما في سبيل تحرير الوطن واندمجا في سلك الشبيبة التابع لجبهة التحرير الوطني بالمنفى "تونس" إلى أن طلع فجر الاستقلال والحرية، ليبدآ فصلا جديدا في التحدي وأداء الرسالة.

2. ترجمة للشيخين

1،2. الشيخ مبروك عواج الشامسي:

هو مبروك بن محمد بن عبد القادر بن محمد الشامسي[12]، الملقب بعواج[13]، والدته

10- بيت شعري للمتنبي

11- لم يكن والدا الصبيين ممن انتظموا في خدمة دولة الاحتلال الفرنسي.

12- الشامسي نسبة لعرش الشوامس، وهي قبيلة عربية دخلت متأخرة لأرض سوف قادمة من تراب نفزاوة التونسية، وقد عدّها صاحب الصروف ضمن عديد قبيلة أولاد حَمَد، وينسب هذا العرش لـ"**سماش**" بن سيدي بوجويحيف النفزاوي، وحسب البعض فإن سيدي بوجويحيف هو جدهم لأمهم، وسماش هو ابن ابنته وأبوه من بني سليم الذين سكنوا جبل الظاهر والدويرات وتفرقوا بنواحي نفزاوة. ينظر: إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تع. الجيلاني بن ابراهيم العوامر، منشورات دار ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007، ص. 351

13- بخصوص هذا اللقب "الكنية" يقول الشيخ مبروك، أنه حديث في العائلة، فقد كان جدهم يُعرف باسم عبد القادر بن محمد الشامسي فقط كعادة أهل المنطقة، وعندما بدأت الإدارة الفرنسية بالوادي في تسجيل الحالة المدنية لعرش الشوامس وزّعت عائلاتها واخترعت لها نعوتا لتفرق شملها، فكان من نصيب جدهم لقب "عواج" نظرا لطول قامته وضخامة جسمه، كان ذلك سنة 1948م، ومن الإشكالات التي اعترضت طريق الصبي مبروك لمّا أراد الدخول لمعهد الزيتونة بتوزر، أنه لا يملك شهادة ميلاد، ولا يعرف اللقب الذي سجل به كبير العرش والده في الحالة المدنية، ما دفعه إلى اصدار

"أم الخير" بنت خليفة ظريف، كانت ولادته سنة 1934م[14] في بادية حاسي خليفة، هو أكبر إخوته الأربعة (ثلاث بنات وولد)، يشاء القدر أن يصاب الولد "مبروك" بمرض في عينيه لمّا كان رفقة والده يحتطب في الصحراء وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، وبسبب نقص التطبيب وشظف العيش وقلة ذات اليد، حيث كانت الأسرة بدوية تجوب الصحراء وتعتمد على التداوي بالأعشاب، حتى لما دخلوا أرض نفطة التونسية وجدوا فيها مصحة بها ممرض فقط، عالجه بقطرات دواء لكن ذلك لم يفده في شيء، ولازال المرض به حتى فقد الصبي بصره وأصبح كفيفا حبيس البيت[15].

2،2. الشيخ حمد توبة

هو حمد بن مسعود بن محمد بن صالح الصْلِيعي[16] الشامسي، منبت العائلة في قرية جِلمة ضواحي منطقة الدبيلة، وأمّه فاطمة عوين ولد في صائفة 1932 أو 1933عام الروز الأول[17] في بحيرة الأرنب بمنطقة الماء لبيض[18] قرب تبسة حاليا، فقد بصره في الصغر على مرتين، الأولى بسبب عود حطب في عينه اليمنى وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره، والثانية نتيجة أمراض العيون المنتشرة آنذاك، حاول والده معالجته بالطب الشعبي والأعشاب لكن النتيجة كانت عكسية إلى أن فقد ما تبقى من بصيص نور في عينه الثانية[19]، ليبدأ الصبي مرحلة جديدة وغريبة عنه، واستطاع بتوفيق من الله أن يُحوّل المحنة إلى منحة، والظلمة

حكم شرعي بتونس تحت اسم مبروك الشامسي. ينظر: الشيخ مبروك الشامسي، **مذكرة نفيسة**، تق. تع. علي غنابزية، مؤسسة ايموبال المطبعة العصرية، الوادي، ص. ص. 22، .53

14- حسب شهادة الميلاد للشيخ فهو من مواليد 1937م.

15- نفسه، ص..27

16- الصليعي تسمية لقبيلة من "غْرِيب" جنوب تونس نزلوا قديما إلى سوف وبقيت فرقة منهم "محنكين الشوامس" – اللفظ للشيخ حمد – بمعنى مندمجين معهم، فجد الشيخ أتى من غريب وامتهن حرفة رعي الأغنام "سارح" عند مبروك شراد الشامسي وتزوج بـ مسعودة شراد التي هي جدة الشيخ حمد. ينظر: **لقاء مع الشيخ حمد توبه (مولود في1932)**، في بيته بقرية جلمة جْدَيدة الدبيلة، يوم الثلاثاء 18 رمضان 1443 هـ الموافق لـ 19 أفريل 2022)، على الساعة .11:00

17- هذا من التقويم الشعبي العامي في سوف آنذاك والأمثلة كثير عام المسطورة 1897م، عام لحلاس "الزاوية الكحلة" 1898م عام الحِلْبة 1934م ، عام الخزناجي 1925م،...إلخ، وقد ذكر لي الشيخ أن عام الروز الأول يوافق سنة 1933م، بينما وجدنا في أرشيف بلدية الرباح وثيقة معتمدة كرزنامة للتأريخ في حوادث سوف، مؤرخة في 05 سبتمبر 1961م تشير أن عام الروز الأول يوافق سنة 1931م. لكن ما ذكرت له عائلته أن أحد أقرانه من أبناء الحي ولد معه في نفس السنة والشهر تقريبا وكان والده يعمل بمنجم الرديف بتونس قد سجل ميلاده سنة 1935م. **لقاء مع الشيخ توبه**، المصدر نفسه.

18- صالح فالح، **حكايتي مع القرآن الكريم**، حصة بإذاعة الجزائر من الوادي، بثت يوم 05 مارس 2022.

19- **الشيخ حمد توبه**، مصدر سابق.

إلى نور، فالتحق كغيره من الصِّبية بمسجد البلدة يزّكّى، فعلّمه الطالب أحمد مباركي من القرآن ربعه الأخير، حتى أشرق فؤاده وتنورت بصيرته.

والد الشيخ (مسعود بن حمد) رجل بسيط يرعى الغنم في صحراء سوف، اشتهر عند الناس بمهنية عالية، ثم نزل إلى البلاد ليمتهن مهنة رفع الرملة "التراب" على ظهره لغراسة النخيل، واستمر به الحال حتى عجز عن المواصلة فيها، ودارت به الأيام حتى أخذ نصيبه من الفقر وقلة ذات اليد، ومن فرط غمّه وحيرته – طَاحْ بِيهْ المَدح- (التعبير للشيخ) بمعنى انهال عنه قول المديح على عادة المتصوفة أنذاك، فأصبح مدّاحا قادري الطريقة[20]، وبما أن ولده الكفيف لا عمل له فأراد أن ينتدبه معه في المديح، وهكذا أصبح الصبي على مضض منه، متجولا مع والده يضرب البندير "الطبل"، وقد روى لي الشيخ أن والده كان يتمنى أن يصير ابنه مدّاحا، وأن يجعله مستودعا حافظا لأمداحه، فيقول له "كِيف نْجيب مَدحة احفظها"، فهل يتمسك الصبي بالمدح على هونٍ وكره منه؟ أم يفارقه ويعصي والده؟

حاول الصبي محاورة والده ليترك سبيله لكن دون جدوى، وبقي الولد في هذا الصراع ردحا من الزمن، ومن القصص التي لا زال الشيخ يذكرها أنه حضر مع والده حفل زواج في الصحراء، وكان من المدعوين لهذا الزواج الشيخ مصباح حويذق[21] وهو شيخ علم "عَصْرَيوني"[22]، وقد أعجِب الصبي بكلامه وعلمه كثيرا من خلال الجلسات التي كانت تقام في تلك الأمسيات[23]، وإلى الآن لا زال يعتبر الشيخ حويذق أحد الذين كان لهم الفضل في

20- المصدر نفسه.

21- هو مصباح بن الطيب ولد سنة 1902 بالطريفاوي التحق بجامع الزيتونة سنة 1920 وتخرج منه بشهادة التطويع سنة 1931، انتدبته جمعية العلماء المسلمين للتعليم في مدارسها، فكان يتنقل من الحراش إلى تلمسان إلى بني هديل، إلى سبدو، إلى مستغانم، اعتقلته السلطات الفرنسية لإسكات صوته، إلا أنه ظل مناضلا عنيدا صداحا بالحق، وهكذا بقيت سيرته حتى بعد الاستقلال، وقد كلفه ذلك الكثير من التعب والتعذيب والنفي داخل الوطن، إلى غاية وفاته يوم 28 فيفري 1973 بمستغانم. ينظر: موسى بن موسى، **الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900 -1939**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2005-2006، ص.174، الشروق أونلاين، بتاريخ 2015./01/26.

22- عصريوني تسمية يطلقها عامة الناس على شيوخ الحركة الإصلاحية، الذين يحاربون البدع والخرافات.

23- كان الزواج في سوف يدوم عدة أيام تتخللها جلسات سمر وجلسات فنتازية وفرح ومرح ولكل فئة وجنس نشاطاتهم، وتغلب على الحفل وتتنوع فقراته بحسب القيمة الاجتماعية للعائلة صاحبة الفرح، ومن الأنشطة المصاحبة للسمر الليلي المبارزات الشعرية "ربط العرس" والحكواتي، والمدح، وهنا بيت القصيد فالشيخ "الصبي" حمد ووالده استدعيا للزواج بهذه الصفة "مداح" ولا زال يذكر السجال الذي دار بين والده والشيخ مصباح حويذق، وكان يستمتع بكلام الشيخ كثيرا ويراه عين الصواب، ولا يستسيغ حديث والده.

حبّه للعلم، فيقول: "تعلّمت منه ولم أتتلمذُ عليه" فهو المصباح الذي أنار دربه[24].

3. تحدي الظلام وتحطيم القيود:

بعد أن نزل البلاء بالصّبيّين في صغرهما وخطف أبصارهما من غير حول لهما ولا قوة، وطابت نفوسهما لقضاء الله وقدره، بدأت الحيرة العلمية تهواهما وتحلّق بهما عاليا، وتعلقت نفوسهما بتحدي الظلمة وكسر القيد، وكانا أهلا لها، وهذا هو الابتلاء الحقيقي عند ابن الجوزي فيقول: "ما ابتلي الإنسان قط بأعظم من علو همته، فإن من علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعده الزمان، وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب"، حتى قال عن نفسه: ولعلّ تهذيبي في تعذيبي[25]. ستأخذنا هذه السطور لمعرفة تجربة هذين العلمين في تحدي الإعاقة، وكيف تحملا كل المتاعب ورسما طريقهما في الحياة بجدٍ واجتهاد، وهي سيرة كل من يرغب في النجاح في كل عصر وحين، لأن الدنيا تؤخذ غلابا، ومهما طال الليل فلا بد للصبح أن ينجلي.

1،3. الشيخ مبروك اعواج الشامسي:

لمّا جاء البشير وأخبره بمولوده البكر سمّاه "مبروكا"، كان يومها والد الشيخ يعمل بمنجم رديف بتونس، جمع رفاقه في العمل وأشهدهم على نفسه بأن يهب هذا المولود للجامع، يعني تعلم العلم والقرآن[26]، وهي أمنية يتمنّاها كل أب، ثم انصرف الوالد في شؤون الحياة إلى أن جاءت حادثة فقد البصر وانزوى الولد في ركن البيت يبكي حاله ومآله، بين مدٍّ وجزرٍ، حتى هدى الله أحد الصبية من جيرانهم إلى اصطحابه معه للمسجد لتعلم القرآن، فكان ذلك فتحا وتوفيقا إلهيا، ليبدأ الصبي حكايته مع القرآن في مدينة نفطة، واستطاع أن يحفظ القرآن الكريم في أربع سنوات على يد الشيخين؛ الطيب ظريفة وعبد الكريم بن علي الصالح، وهذا الأخير هو معلم القرآن بمسجد سيدي عرفه أحبه الصبي كثيرا وحبّبه في العلم أيضا، فقد كان رحيما عطوفا بجميع طلبته وبه خاصة[27].

بعد ختمه القرآن سنة 1951م تاقت نفسه للتّفقه في الدين وعلوم اللغة العربية، على يد مجموعة من شيوخ البلدة منهم الشيخ عروسي عبادي والشيخ بن حمد والشيخ الصادق بن التابعي والشيخ الطاهر بن نوري والشيخ التابعي السوفي والشيخ التابعي معيزة[28]، وفي هذا المجال يقول ابن الجوزي" وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع ثم أضيف إليها معرفة

24- حمد توبه، مصدر سابق.

25- ابن الجوزي، مصدر سابق، ص. 250-.254

26- مبروك الشامسي، مصدر سابق، ص.24

27- المصدر نفسه، ص. 29.

28- المصدر نفسه، ص. 50.

اللغة العربية والنحو، فقد شحذت شفرة لسانه على أجواد مسن، ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجلّ، فتحت له أبواب لا تفتح لغيره..."[29].

عُرف الشيخ مبروك باجتهاده وفقهه، لذلك اختارته جماعة مسجد "علي قرقورة" بحي خيط الطين للإمامة بهم وتعليم القرآن، واستطاع بذلك أن يعين أسرته على تكاليف الحياة، خاصة وأنه في هذه الفترة بقي هو وأمه في نفطة وعاد والده للوادي، واصل الشيخ الإمام العلم والتعلم ولم يكتف بما ناله، وأصبح هدفه الآن المعهد الزيتوني بتوزر قِبلة العلم والعلماء خاصة للطلبة القادمين من جنوب الجزائر، ومن وجهة نظر الشيخ حمد توبة الذي درس فيه هو أيضا، فإن العلوم والمعارف الموجودة في هذا المعهد بفضل شيوخه وعلمائه غير موجودة في جامع الزيتونة الأصل[30].

كانت العقبة أمامه كؤود، كيف له أن يتمكن من المواد العلمية؛ كالحساب والجبر وقواعد الأشكال الهندسية والتاريخ والجغرافيا للمشاركة في امتحان الدخول للمعهد الزيتوني، ولذلك فقط ضحى بوظيفته (الإمامة والتعليم) وتفرغ لدراسة تلك المواد بمساعدة بعض أصدقائه من الطلبة[31] خلال العطلة الصيفية لسنة 1953م فكان له ما أراد وفاز في امتحان القبول، وكلما زاد طموحه زادت متاعبه لولا الدعم المادي والمعنوي الذي تلقاه من الطلبة عموما والسوافة على وجه الخصوص، وهنا ننوه بدور الجالية السوفية في بلاد الجريد التي كانت نعم العون للطلبة في كثير من الأوقات، ومنهم نذكر: صاحب حافلة نقل الركاب بين نفطة وتوزر ويدعى العربي بالشاوش، الذي منحه تذكرة سفر مجانية أسبوعا بعد أسبوع، والتاجر "نصر واجدة" الذي نادى في الطلبة الجزائريين عموما ودعاهم إلى أخذ ما يحتاجون، فمن كان ميسورا سدد ومن لم يستطع عفا الله عنه.

اضطر الشيخ للعودة إلى سوف مع والدته صيف سنة 1955، وتزامن ذلك مع معركة هود شيكه" 08- 09- 10 أوت 1955" والتي أسفرت عن غلق الحدود، وحيل بينه وبين العودة إلى الدراسة، فحاول الحصول على رخصة من الحاكم العسكري بالدبيلة "بريدو" على أنه طالب علم وكفيف لكن دون جدوى، ما دفعه إلى الهجرة سرا وخفية متنكرا مع ابن عمه صاحب غنم قرب الحدود وله ترخيص سفر بالدخول إلى التراب التونسي، ومع ذلك فقد علمت الإدارة الفرنسية به وتعقبت آثاره، وبات في عديد المبحوث عنهم، وفارق الوطن دون رجعة، ولم يزره إلا بعد وقف إطلاق النار سنة 1962م. واصل الشيخ دراسته بجد واجتهاد، إلى أن تحصل على شهادة الأهلية سنة 1957م بتفوق ومنحت له جائزة،

29- ابن الجوزي، مصدر سابق، ص. 190.

30- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

31- لازال الشيخ يُثني خيرا على صنيعهم معه ويدعو لهم في ظهر الغيب، لأنهم آزروه ونصروه ونوّروا له طريق الحياة. ينظر: الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص. 55.

فكانت حافزا له على المواصلة، ثم انتقل إلى تونس العاصمة ليواصل دراسته، فحصل على شهادة التحصيل (تعادل شهادة البكالوريا آنداك) وبها استطاع الانتساب لجامعة الزيتونة كلية الشريعة وأصول الدين، درس فيها ثلاث سنوات توّجت بشهادة العالمية سنة 1963م.

شيوخه:

من الشيوخ الذين درس عنهم وأناروا طريقه في توزر: العربي النفطي، عبد الرحمان زمال، سليمان بلوزة، صالح الساكر، العروسي عبادي، إسماعيل الهادف، الحبيب بن بلقاسم، وأما شيوخه بالزيتونة فهم: الفاضل بن عاشور، والحبيب بن الطاهر بن الخوجه، محمد العنابي، العربي الماجري، الهادي النيفر وغيرهم.

2.3 الشيخ حمد توبه:.

بعد فقد البصر عاش الصبي طفولة قاسية، فركن إلى مسجد الحي بجِلمة يحفظ القرآن حتى أتمّ الربع الأخير "ربع يس" على يد الطالب أحمد امباركي[32]، وبحكم أن الأسرة بدوية ولا تملك في القرية لا رزق ولا مال حتى تستقر لأجله، ولم يكن التعليم ذا أهمية كبيرة عند كثير من الأسر، فهي تعتبر أن الولد يكفيه بضع سور من القرآن يقيم بها صلاته وفقط، فشدّت الأسرة رحالها إلى الصحراء[33]، وانقطع حبل التعليم عن الصبي واكتفى إلى حين بما تيسر له من القرآن، وأجبرته الظروف على حمل الطبل "البندير" مع والده المدّاح يجوب الصحراء والقرى – في حكم الوالد- حتى دخلوا نفطة حوالي سنة1951 أو 1952 ومنها إلى توزر وأقاموا عند خاله مؤذن بمسجد زاوية الشيخ المولدي[34].

بقيت الأسرة تتنقل بين أحواز الجريد ورديف "عيّاشه" وهناك عاد له حبل العلم، فواصل حفظ القرآن حتى بلغ نصفه على يد الطالب الدبيلي عمارة بالميعادي[35]، ولمّا آنس منه تمكنا من القرآن زكّاه لدى مجلس الثورة بالرديف[36] -حسب تعبير الشيخ وهو يقصد التنظيم المدني لجبهة التحرير الوطني بالرديف– وقال لهم بأن "سي حَمد" أصبح طالب كبير لو نرسله إلى نفطة ليواصل تعليمه أفضل، فوافقوه في مراده[37]، وبذلك تفرغ الشاب للدراسة فالتحق بالزاوية الإبراهيمية وتتلمذ علي يد الشيخ محمد بوقفة، ومن شدة حبه

32- صالح فالح، **حكايتي مع القرآن الكريم**، حصة بإذاعة الجزائر من الوادي، بثت يوم 05 مارس 2022

33- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

34- صالح فالح، مصدر سابق.

35- ذكر لي الشيخ أن أصل هذا الطالب من منطقة الدبيلة لكنه عاش في بلدة النخلة بـ "عْميش" ثم انتقل إلى رديف.

36- من المناضلين الذين ذكرهم الشيخ توبه: العربي قمودي، بن علي المكي، الطالب خزاني، العربي بالنور.

37- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

للعلم كان لا يكتفي بحفظ القرآن فقط، بل كان يتسلل مع بعض رفاقه إلى مجالس العلم في مساجد البلدة لحضور دروس الشيخ "بن حمد" والشيخ "سي أحمد بالصالح" في الفقه والنحو والتفسير وغيرها.

بعد ختم القرآن وأخذ نصيب من الفقه، بدأ الشيخ يتطلع للالتحاق بالمعهد الزيتوني بتوزر، فاحتك ببعض الطلبة السوافه، منهم بشير وعثمان بقاص وبن علي عبد الرحمان وتعلم منهم بعض العلوم في الرياضيات والكيمياء والتاريخ حتى يجتاز امتحان القبول في المعهد[38]. دخل الشيخ توزر يوم" 1956/10/22 وهو تاريخ لن ينساه لارتباطه بحادثتين؛ أولاهما شخصية تتمثل في تحطيم القيود وتحدي العوائق، وثانيهما وطنية تتعلق باختطاف طائرة الوفد الخارجي للثورة، ثم سعى لتقديم ملفه والاستعداد ليوم الامتحان، وقد أكرمه المولى سبحانه بالتوفيق فكللت جهوده بالفوز والقبول، ونظرا لتمكنه وتفوقه أدمج في السنة الثانية مباشرة وواصل دراسته بجد واجتهاد حتى نال شهادة الأهلية سنة 1959م، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس العاصمة، درس فيه ثلاث سنوات نال من علومه ما شاء الله له.

شيوخه:

من الشيوخ الذين أدبوه وعلموه في بلدته بالجديدة، الطالب أحمد مباركي، والشيخ العروسي لحويتي وهو شيخ علم زيتوني متخصص في القراءات وفقيه لا يشق له غبار، فتح مدرسة حرة في الجديدة سنة 1953م، والشيخ العروسي بالغريسي، وهو شيخ عصامي متمكن في الفقه، ثابت الحجة[39]، ومن شيوخه في بلاد الجريد، بن حمد، وسي أحمد بالصالح، والشيخ علقمة، إضافة إلى شيوخ جامعة الزيتونة.

4. المشاركة في العمل السياسي:

لم تغب عن الشيخين القضية الوطنية خاصة أثناء إقامتهما في تونس، خلال فترة الخمسينات من القرن العشرين، فالرديف والمتلوي والكاف وتونس العاصمة أجواؤها وهواؤها نضال وكفاح، لجوء ومقاومة، ولم يكن الشيخان استثناء للقاعدة، فقد شهدا فصولا من مخاض الثورة والانتصار، حتى أن أحدهما كلفه ذلك الرسوب في دراسته بسبب انشغاله بالعمل السياسي[40]، وسنذكر شيئا من ذلك في الأسطر القادمة:

38- صالح فالح، مصدر سابق.

39- يقول عنه الشيخ حمد توبه: تتبعت جميع أجوبته وفتاويه التي يلقيها للناس، فلم أجد فيها ما يخالف الصواب.

40- ذكر لي الشيخ توبة أن من أسباب رسوبه في السنة الثانية بجامع الزيتونة اشتغاله بالسياسة والجلوس في المقاهي والمسارح لتتبع أخبار الثورة.

1.4. الشيخ مبروك اعواج الشامسي:

يقول الشيخ في مذكرته: "من الأعمال التي اهتممت بها كثيرا، واعتنيت بها عناية فائقة وملأت فراغ وقتي وحالت دوني ودون البحث العلمي الموسع لتأليف الكتب، هي النضال السياسي، لأني عشت في زمن الاستعمار وذقت مرارة ظلمه... فأثر ذلك فيَّ وغرس في نفسي حب النضال والروح الوطنية، فاشتغلت بالسياسة منذ نعومة أظفاري"[41]، ففي المعهد الزيتوني بتوزر أنشأ مع زملائه الطلبة نادي للأنشطة الثقافية اللاصفية، كان الشيخ نائبا لرئيسه، يقوم ببرمجة محاضرات وندوات لأساتذة في شتى الفنون بما فيها السياسية، هدفها نشر الوعي والنضال المشترك للشعبين التونسي والجزائري، وهذا البعد الوحدوي جعله ينخرط في الكشافة التونسية، ويحضر اجتماعات وملتقيات الحزب الدستوري التونسي ويتحمس لنقاشاتهم السياسية، خاصة إبّان الخلاف بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف حول مسألة الاستقلال الداخلي: هل هي خطوة للأمام؟ أم خطوة للوراء؟ [42]

وفي ميدان النضال الوطني الجزائري، انخرط الشيخ مبكرا في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وشارك في اضراب الطلبة يوم 1956/05/19، والمظاهرات التي أقيمت في توزر[43] تنديدا باختطاف زعماء الثورة 1956، كما أجرت معه مجلة تصدر بدولة جنوب افريقيا حوارا ونشرت معه صورته سنة 1958 كعينة من اللاجئين الجزائريين في نضالها ضد الإمبريالية. وعشية الاستقلال تمكن من العودة إلى الوطن والمشاركة في استفتاء تقرير المصير سنة 1962. وتوّج نضاله السياسي بعد الاستقلال بالانخراط كعضو نشط في حزب جبهة التحرير الوطني، وترأس خلية تكسبت، وكان عضوا في خلية التوجيه التابعة لقسمة جبهة التحرير بالوادي، رفقة عمار بوصبيع وادريس مسطور[44]، والتي من مهامه الدعاية الحزبية والسياسية، وتنشيط المواعيد الانتخابية، وحشد المواطنين لمساندة برامج الدولة الفتية، وبحكم تكوينه الديني والثقافي فقد مارس الشيخ تحت مظلة الحزب نشاطا دعويا اجتماعية يتمحور في خمس نقاط هي:

- مكافحة الفساد: الرشوة والسرقة وتعاطي الخمور والمخدرات.
- المحافظة على الأملاك العمومية.
- الاتحاد ورصّ الصفوف ونبذ الجهوية.

41- الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص. 105.

42- ذكر الشيخ أنه كان يؤيد صالح بن يوسف.

43- انطلقت المسيرة من سوق توزر متجهة نحو الثكنة العسكرية الفرنسية، ينظر" الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص، ص. 106، 107

(44) المصدر نفسه، ص. 108.

- الإخلاص في العمل

وقد كلفه ذلك معارضة بعض الشخصيات النافذة في الحزب كرئيس القسمة، ثم تطور الخلاف بإحالة الشيخ ولجنته على مجلس التأديب وطردهم من الحزب[45].

2،4. الشيخ حمد توبه:

كل طلبة العلم بلا استثناء في تلك الفترة ارتووا من كأس السياسة، فما بالك بالطلبة اللاجئين في تونس، الذين احتضنتهم جبهة التحرير الوطني في خلاياها، وكانوا بذلك أقرب لدوائر صنع القرار، إضافة إلى هامش الحرية مقارنة بزملائهم في أرض الوطن، والشيخ توبه واحد من هؤلاء منذ كان طالبا في الرديف، انخرط في خلية تحت رئاسة المناضل "بده المكي"[46]، فكان من الالتزامات المفروضة على المنتسبين للخلية جمع الأخبار السياسية من المقاهي والجرائد والإذاعات[47]، كما كان الشيخ ينشط في نادي الشبيبة التابع للحزب ومن المهام الموكلة إليه بيع الجرائد وصور الزعماء، فكان بذلك على اتصال دائم بالشأن السياسي، ومن ذكرياته السياسية علاوة على جلوسه مع الطالب العربي وبعض القادة في الرديف، يذكر أنه زارهم ذات ليلة، وبات معهم في نفس الغرفة، قائد المنطقة الأولى "مصطفى بن بولعيد"[48] ولم يعلم بذلك إلا لاحقا.

وبعد الاستقلال واصل الشيخ نضاله الوطني السياسي، فشارك في أربع عهدات بلدية عضوا في مجالسها الشعبية، ينشد الإصلاح والتغيير، وترأس منظمة المكفوفين لأربع سنوات، مجتهدا في رفع انشغالاتها للمسؤولين، والأخذ بأيديها في تحدي المعيقات.

5. العودة لأرض الوطن ومعايشة أفراح الاستقلال:

كتب الله للشيخين أن يشهدا مخاض الحرية وولادة الاستقلال، وهما شابين مثقفين في مقتبل العمر، كلهم أمل في غروب شمس الاستدمار بلا رجعة، والتطلع لغد مشرق، كيف لا وقد نَحَتت تلك الأحداث في ذاكرتهم نحت المياه على الصخرة الصماء في الجبل الأشم، واسْأَلِ القرى التي كانوا فيها، والعير التي أقبلوا فيها تُنْبيك عن أمْسِهم ويومهم ومستقبلهم، فالشيخ مبروك منذ 1955م لم يُسمح له بدخول الوطن إلا بعد وقف إطلاق النار 19 مارس 1962م، وتلك ليلة ليلاء خرج فيها الجزائريون والتونسيون إلى الشوارع يحملون الرايات الوطنية، يصفقون ويرقصون، ويبكون فرحا بيوم الاستقلال، ومما يذكره الشيخ حمد توبة

45- الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص، ص. 108، 110.

46- صالح فالح، مصدر سابق.

47- كان الهدف من ذلك زيادة الوعي السياسي في أوساط اللاجئين وربطهم بقضيتهم الوطنية.

48- صالح فالح، مصدر سابق.

أن رفيقا لهم يدعى "عمارة نعرورة"[49] ضرب الجدار برأسه بكل قوة لما سمع خبر وقف إطلاق النار ونجاح الوفد الجزائري في مفاوضات ايفيان18 مارس 1962، حتى خشينا عليه أي يصيبه مكروه[50].

عاد الشيخان إلى أرض الوطن واستقرا فيها نهائيا في سنة 1963م، وطويت بذلك صفحة الدراسة والتكوين وانخرطا في ميدان الإمامة والدعوة والتعليم، لتنوير الأمة وتقديم زكاة علمهما للطلبة ولعامة الناس، وحق فيهم القول: من كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة.

6. الإمامة والدعوة والتعليم:

اشتغل الشيخان بالإمامة والدعوة والتعليم منذ أن عادا لأرض الوطن، أحرارا على طريقة شيوخ الجريد، ثم في الإطار الرسمي التابع لوزارة الأوقاف "الشؤون الدينية" بعد توظيفهما للإمامة، فكانت لهما صولات وجولات في ربوع المنطقة وضواحيها، واستمر حيهما للعلم والتعليم، فجالسا العلماء والفقهاء، وعلّما الشباب والصبية، وحاربا البدع والخرافات، فأرشدا الضّالين ونبّها الغافلين ما استطاعا إلى ذلك سبيلا، بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان لهما ما كان للدعاة والمصلحين، قبول واحترام وأحيانا جحودا ونكرانا.

6، 1 جهود الشيط مبروك:

بدأ الشيخ نشاطه بفتح مدرسة خاصة للتعليم العام بقرية الذُّكار، تقدم دروسا في العلوم الشرعية وتحفيظ القرآن الكريم وبعض العلوم الدنيوية؛ كاللغة والحساب، استمرت المدرسة سنة كاملة، لينتقل بعدها للتوظيف إماما خطيبا بمسجد "بابة ساسي" بتقرت سنة 1964م، فأتيحت له الفرصة لتقديم دروس ومحاضرات في الوعظ والإرشاد بين المغرب والعشاء، ودروس لتلاميذ المدارس النظامية خارج أوقات الدوام فيما يحتاجونه كدعم وتقوية، كما كانت له إطلالة على ساكنة تقرت عبر أثير إذاعتها شارحا لهم سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام. بقي الشيخ في تقرت ثلاث سنوات تعرّف فيها على شيوخ وأعيان المنطقة منهم الشيخ الطاهر العبيدي، والشيخ عز الدين عباسي والسيد الحشاني العمري[51].

انتقل الشيخ إلى تكسبت بالوادي كإمام لمسجدها العتيق منذ 1967م، حاملا مشعل العلم والدعوة، فبادر كعادته لفتح مدرسة حرة، سمّاها مدرسة ابن باديس القرآنية[52]،

49- هو الآن قاضي بالجزائر العاصمة.

50- صالح فالح، المصدر نفسه.

51- الشيخ مبروك، مصدر سابق، ص. 91.

52- يقول الشيخ مبروك أن البناية المخصصة للمدرسة كانت في الأصل مدرسة بناها رجال الإصلاح من

بناها على أنقاض المدرسة القديمة بعد أن رمّمها وأثّثها، فكانت صرحا علميا يأتيه طلبة العلم من جميع دوائر الولاية وحتى من خارجها كتبسة وخنشلة وورقلة، وللتعليم في هذا المدرسة ثلاث مستويات، تتوج الدراسة فيها بشهادة معترف بها، فقد تمكن بعض منتسبيها من التوظيف بها في سلك المعلمين الممرنين، أو الدخول إلى المعهد الإسلامي وغيره.

بقي هذا الصرح على نشاطه عقدا كاملا، إلى أن ألغت وزارة التربية والتعليم أنذاك الاعتراف بشهادة المدارس الحرة، وكما يقول المثل: إذا سقط الجمل تكثر عليه السكاكين" فقد تآمر بعض أهل الحي على المدرسة وأرادوا افتكاكها وتحويلها إلى مرفق عام (مجمع إداري، ومكتب بريد، وقسم للكشافة...)، ظل الشيخ في خصام معهم حتى طاف عليها طائف وهم نائمون فأصبحت كالصريم، أحرقوا كتبها وكراريسها وكسروا طاولاتها ونهبوا بعض ممتلكاتها، ولسان حالهم ارحل عنّا. تفرّغ الشيخ بعد ذلك للإمامة وتعليم القرآن وتقديم دروس في الفقه المالكي وعلم الحديث، في مسجد تكسبت، ونقل مدرسته ومن بقي من تلاميذها إلى المسجد الذي أسسه في حي الشوامس بالقارة بين سنتي 1971 و1972[53]، وهكذا سار الشيخ بقية حياته المهنية، يطوف بين مساجد الولاية واعظا مرشدا ومصلحا بين الناس.

6، 2 جهود الشيط حمد توبه:

تعلق الشيخ توبه بالدعوة والتعليم مذ كان شابا يَدْرس في معاهد الزيتونة، وأدرك أن النخبة المثقفة هي التي تقود المجتمع وهي صانعة التغيير، وأن أولى الأولويات هي بناء الفرد وتكوينه، فحرص عند عودته إلى الوطن سنة 1963م في تقديم دروس دعم صيفية للتلاميذ وغيرهم من الشباب في قواعد اللغة والحساب، بمدرسة الحي "جلمة" كنوع من التعليم الحر كعادة شيوخه في بلاد الجريد، ثم اشتغل بالإمامة لفترة قصيرة في أحد مساجد قرية حساني عبد الكريم سنة 1969م[54].

قام الشيخ سنة 1969م بإجراء معادلة لمستواه الزيتوني بشهادة البكالوريا من جامعة

جمعية العلماء المسلمين بتكسبت عندما زارهم الشيخ ابن باديس سنة 1937م، ولكنها بقيت خاوية على عروشها، إلى أن أعاد لها الشيخ الحياة وعادت لما أسست له. المصدر نفسه، ص. 94.

53- اشترى الشيخ مبروك قطعة أرض بماله الخاص من محمد الصالح هبيته وتبرع بها لبناء هذا المسجد، وشاركه في بناءه كثير من المواطنين بالمنطقة، ثم انتدب له أحد طلبته ليؤم الناس في الصلاة.

54- ذكر الشيخ أن سبب توقفه عن الإمامة بهذا المسجد، ما بدى له أن تأسيسه كان سببه خصام بين جماعة المسجد القريب منه جدا، ما دفع فريقا منهم إلى ترميم زاوية قديمة وتحويلها لمسجد ودعي الشيخ لإمامتهم وهو لا يدري، فلما تبين له ذلك صارحهم بعدم جواز صلاة الجمعة فيه وفارق المسجد معتمدا على ما اطلع عليه في كتب الفقه المالكي وفي مقدمتهم "الميارة"، وقال لي الشيخ أنه وجد في هذه المسألة اثنان وثمانون قولا للسادة المالكية، أقواها ما ذهب إليه هو حسب اجتهاده.

باب الزوار بالعاصمة، ثم زكاه الشيخ عز الدين عباسي ليلتحق بالإمامة كموظف رسمي بداية من سنة 1972م بمدينة الوادي، بعدها انتقل إلى قريته بالجديدة متفرغا للإمامة والدعوة وتكوين الأئمة في ندواتهم الداخلية[55].

عُرف الشيخ بتركيزه على التوحيد واصلاح العقيدة ومحاربة المعتقدات الفاسدة، وحتى في تكوين الأئمة كان يصرّ على اختيار هذه المواضيع، لأنه يدرك مدى افتقار الناس لهذا الجانب وتقصيرهم فيه، وبالتالي كان لزاما على الشيوخ والعلماء تنوير الناس وإنقاذهم، واصل الشيخ مهمته الإصلاحية خارج المنبر، فقد فتح بيته لندوة مسائية بين العصر والمغرب [56]، لكل طالب علم وفقه، تدارس فيها مع جلسائه كثيرا من المواضيع والكتب ومن بينها كتاب إحياء علوم الدين.

لم يركن الشيخ في طلب العلم لما عنده من الزاد، بل ظل هواه يقوده لمجالس التذكير والتنوير، فكان من المواظبين على ملتقيات الفكر الإسلامي، يسافر إليها دون كلل أو ملل، ولغاية اليوم يدعو إلى تمكين الناس من الاستفادة من هذا الكنز العظيم والعلم الوفير الذي تزخر به سجلات ودفاتر تلك الملتقيات [57]. استغل الشيخ تلك الملتقيات في مرافقة العلماء والدعاة، فجلس مع الشيخ محمد الغزالي واستمتع بحديثه لما زار الدبيلة، وقد أكرمه هذا الأخير بأن قدّمه للصلاة بهم جماعة في صلاة المغرب، وهذه تزكية من الشيخ الغزالي للشيخ توبه لا زال يعتز بها.

من الملفات المحرجة أو قل المسكوت عنها آنذاك هي قضية تعليم المرأة، لأن المجتمع السوفي في تلك الأيام لازال حديث عهد بالبداوة، وبتعبير الشيخ حمد "البداوة متغلبة" خاصة لدى سكان القرى والضواحي، فكثير منهم يعتقد -أن ولده عندما يخدم نهار رملة في غوطه، أو يخدم حشّانة (نخلة) أو اثنين، خير من العلم كله-[58]، فمن الآباء من خاصم الشيخ وهجره، لا لشيء سوى أنه كان يحث أبناءهم على الدراسة ومواصلة طلب العلم ولو خارج البلدة، هذا عن الأولاد الذكور فما بالك بالبنات؟ ومع ذلك كان الشيخ يدعو لتعليم الأولاد ذكورا وإناثا، ولم تثنه أقوال المعارضين وتهكماتهم [59]، والحمد لله كثير منهم الآن

55- الشيخ حمد توبه، مصدر سابق.

56- كان لبيت الشيخ دارا مفتوحة للشارع، وهذا النوع من الهندسة إن جاز لنا القول كان موجودا في منطقة الوادي وتدعى "السفيفة"، فمن يبحث عنه خارج أوقات الصلاة يجده في هذه الدار، فكانت أشبه بمَحْضرة علمية.

57- صالح فالح، مصدر سابق.

58- حمد توبه، مصدر سابق.

59- من هذا التنابز الذي لقيه الشيخ من عامة الناس؛ "الطالب يقول أخرجوا بناتكم" وعن مجالس العلم يقولون: "الأولاد تجيبوهم للهملة والضياعة"؛ بمعنى مضيعة للوقت، في عمل غير منتج وغير مفيد،

إطارات في شتى الميادين تفتحت عقولهم وأبصارهم بفضل الله أولا ثم بفضل جهود أهل البصيرة.

7. خاتمة

للشيخين في ميدان الدعوة والتعليم باع كبير لا تحصيه هذه الأسطر، فقد أفنيا حياتهما كدّا وجدا منذ شبابهما يتنقلان بين مجالس التنوير والتحرير داخل الوطن وخارجه، بهمة عالية وطموح أهل العزائم، فلو عُدنا لذلك العصر لوجدناهما في كفاح بين ظلامين؛ ظلام فقدِ البصر وهو خاص بهما، وظلام الجهل الذي طال مجتمعهم ووطنهم، لكن إرادتهما كانت أقوى وبصيرتهما كانت أنفذ، فضربا مثلا لأولي الأبصار، في العلم والتعليم والدعوة كأسلافهما السابقين، فمن كدّ وجد ومن سار على الدرب وصل.

ومن خلال قراءتنا لهذه السيرة والمسيرة نقف على النقاط الآتية:

- فقد البصر ابتلاء ومحنة، لكنها عند أهل العزائم منحة ربانية تفتح البصيرة.
- التميز والنجاح ليس مشروطا بكمال الإمكانيات والوسائل، بل بقوة الإرادة والاستمرارية.
- للكفيف والمبصر رسالة واحدة على السواء، تنوير وتحرير الأمة على مر العصور والأيام.
- في سبيل الدعوة والتنوير وظّف الشيخان كل الوسائل المتاحة آنذاك؛ منصات السياسة ومنابر المساجد، والإعلام وكذا الجمعيات والهيئات الاجتماعية والثقافية والمهنية.

ولمن جاء يسألهم عن الشيخ يقولون له هو: ابحث عنه مع الذر (الصبيان)، مثل ما قالت العرب لأصحاب محمد صل الله عليه وسلم "صبأ فلان" - مع فارق القياس - والحقيقة كان الشيخ يجالس الشبان يعلمهم ويرشدهم لما يصلح بدينهم ودنياهم.